تأثير ابن أبى ربيعة

فى شعراء اللغة العربية

عرف القارئ كيف أثّر عمر بن أبي ربيعة فى شعراء عصره ، كيف حملهم على الاعتراف بتفوقه عليهم فى مذاهب النسيب فمن الخير أن نعرف كيف أثر فيمن خلَفه من الشعراء

وانما عيّنّا من خَلف من بعده لأنه غلب على شعراء عصره ، ضاف إليه الرواة أكثر القصائد التى وُسِمَت بميسمه ، وطُبِعَت بطابعه ،فى حِوار المِلاح .

وكان طبيعياً أن نحاول معرفة من تأثر به ابن أبى ربيعة من القدماء ، وان كنا قد ألمعنا إلى ذلك فى المحاضرة الثالثة ، فلنذكر الآن أنه تأثر بامرئ القيس : فجاراه فى الحديث عن حوادث الليل ، ومدافعة الأحراس ، ومطاوعة الصبا والحب فى هَصر أعواد الحسان

وفى الحق أن أكثر ما مرَّ من شعر ابن أبى ربيعة يذكرنا فى الغرض والأسلوب بقول امرئ القيس :

وبيضة خِدرٍ لا يُرام خِباؤها ... تمتَّعت من لهو بها غير مُعجَل (١)
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً ... علىّ حِراصاً لو يُسرُّون مقتلى (٢)
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرُّض أثناء الوشاح المفصّل (٣)
فجئت وقد نضَت لنوم ثيابها ... لدى السِّتر إلا لبسة المتفضل (٤)
فقالت يمين الله مالك حيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلى (٥)
خرجت بها أمشى تجرُّ وراءنا ... على أثرَينا ذيل مِرطٍ مرحّل (٦)
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحت ... بنا بطن خَبْت ذى حِقاف عقنْقَل (٧)

(١) بيضة الخدر كناية عن العقيلة المخدرة المحجبة ــ غير معجل: غير مضطر الى العجلة (٢) الاحراس والحراس معناها واحد ــ حراص : جمع حريص ــ يسرون مقتله : يضمرونه (٣) الوشاح : أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها ــ والمفصل : هو المرصع بالذهب أو الزبرجد (٤) نضت ثيابها : نزعتها ــ والمتفضل هو الذى يلبس ثوبا واحدا حين يأوى الى فراشه (٥) مالك حيلة : هي كلمة نسائية يراد بها الدعابة لا التحقير (٦) المرط : كساء من صوف أو خز ــ المرحل : الذى فيه صور رحال ، كالمشجر وهو الذى يحمل صور الاشجار (٧) جزت المكان وأجزته وجاوزته وتجاوزته : قطعته وخلفته ــ انتحت : قصدت ــ الخبت : الفضاء الواسع ــ الحقاف والاحقاف جمع حقف وهو نقا يعوج ويدق ــ العقنقل : الوادى العظيم والكثيب المتراكم

هصرت بفودَىْ رأسها فتمايلت ... علىّ هضيم الكشح ريّا المخلخَل (١)
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل (٢)
كبكر المقاناة البياض بصُفرةٍ ... غذاها نمير المـاء غير المحلل (٣)
تصدّ وتبدى عن أسيل وتتقى ... بناظرة من وحش وجرة مطفِل (٤)
وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحشٍ ... إذا هي نصته ولا بمعطّل (٥)
وفرع يزين المتْنَ أسود فاحمٍ ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل (٦)

(١) هصرت فوديها وبفوديها : أملتها الى ــ والفودان : جانبا الرأس ــ هضيم الكشح : دقيقة الخصر ــ ريا المخلخل : بضة الساق ــ والمخلخل : موضع الخلخال (٢) مهفهفة : ضامرة البطن ــ غير مفاضة : غير مسترخية اللحم ، واسترخاء اللحم من عيوب النساء ــ الترائب موضع القلادة من الصدر ــ السجنجل : المرآة المجلوة (٣) المقاناة : الخلط . تقول : قوى بياضها بصفرة ، أى خلط . والشاعر يشبه خليلته ببيضة النعام لأول ما بمزج الصفرة بالبياض ــ نمير الماء : صافيه ــ المحلل : الذى كدرته الابل

بيت يذكرنا بابن أبى ربيعة اذ يصف معشوقاته كثيرا بالترف ولين العيش

(٤) أسيل : رقيق ، صفة لموصوف محذوف هو الخد ــ وجرة : مرب للوحش بين مكة والبصرة . قال بعض الاعراب :

وفي الحيرة الغادين من بطن وجرة ... غزال أحم المقلتين ربيب
فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

ومطفل : ذات طفل : يريد أن نظرتها فيها عطف وحنان (٥) الجيد : العنق الريم : الظبى ــ نصته : رفعته ــ ومعطل وعاطل : لا حلية فيه (٦) الفرع : الشعر المتن : الظهر ــ فاحم : شديد السواد ــ أثيث : غزير ــ متعثكل : ذو عثاكيل ــ وهي في النخيل كالعناقيد فى الاعناب

غدائره مستشزرات إلى العُلى تضل المدارى فى مثنّى ومرسل (١)

وكشح لطيف كالجديل مخصّرٍ وساقٍ كأُنبوب السّقىّ المذلّل (٢)

وتُضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل (٣)

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبىٍ أو مساويك إسْحِل (٤)

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمْسَى راهب متبتل

إلى مثلها يرنو الحليم صبابةً

إذا ما اسبكرّت بين درع ومجول (٥)

تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل (٦)

(١) الغدائر : خصل الشعر ـــ مستشزرات : مرتفعات ـــ المدارى : الامشاط

(٢) الجديل : الوشاح ـــ مخصر : دقيق ـــ السقى على وزن غنى نبات يسمى كثيراً ويسمى البردى ـــ المذلل : اللين (٣) لم تنتطق : لم تلبس المنطق أو النطاق ، وهو شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الاعلى على الاسفل وينجر الاسفل على الارض ـــ والتفضل : لبس الثوب الواحد ـــ وعن ، هنا ، بمعنى بعد ـــ أى لم تلبس المنطق بعد المفضل . يريد أنها أصيلة الترف لم تكتس بعد عرى (٤) تعطو : تتناول ـــ ورخص : لين ناعم ـــ شثن : خشن ـــ أساريع : جمع أسروع وهو دود أبيض أحمر الرأس تشبه به الانامل المخضبة الاطراف ـــ وظبى : اسم واد ـــ والاسحل : شجر يستاك به (٥) اسبكرت : طابت واعتدلت ـــ والدرع القميص ـــ والمجول على وزن منبر ثوب تلبسه الفتاة وتجول فيه قبل أن تخدر (٦) منسل : سال

ألا رُبَّ خصم فيك أَلْوَى رددتهُ

نصيح على تعذاله غير مؤتل[1]

فعلى هذا المنهج جرى ابن أبى ربيعة فى محاكاة امرئ القيس ؛ ولكن أستاذنا الدكتور طه حسين يعكس القضية : فيقرر أن امرأ القيس هو الذى حاكى ابن أبى ربيعة ، إذ يفترض أن شعر امرئ القيس منحول ، وضعه شاعر إسلامى تأثر بعمر ابن أبى ربيعة فحاكاه ، وأجاد المحاكاة والتقليد . وعنده أن هذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر هو فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ، ولم ينازعه فيه أحد ، وأن من الغريب أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ، ويتخذ فيه هذا الأسلوب ، ويُعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى أبى ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبي ربيعة بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس فئة من الشعراء فى أنحاء الوصف ، وأنه يبعد أن يكون امرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ولا يُعرف له ذلك[2]

(١) خصم ألوى : عسر يلتوى على خصمه — غير مؤتل : غير مقصر

(٢) راجع ص ٢٢٢ من الادب الجاهلى

وقد يُلاحظ أن ابن أبي ربيعة آذاع فى شعراء عصره فكرة تقارُض المودة بين المحبين ، وأظهر ما يكون ذلك فى شعر العرجى[1] إذ يقول :

وما أنسَ مِلْأشياء لا أنس موقفا ... لنا ولها بالسَّفح دون ثبير[2]
ولا قولها وَهناً وقد بلَّ جيبها ... سوابقُ دمع لا يجفُّ غزير[3]
أأنت الذى خبَّرتَ أنك باكرٌ ... غداة غد أو رائح بهجير[4]
فقلت يسيرٌ بعض شهر أغيبهُ ... وما بعض يوم غبته بيسير
أحين عصيت العاذلين إليكمُ ... ونازعت حبلى فى هواكِ أميرى
وباعدنى فيكِ الأقاربُ كلهم ... وباح بما يخفى اللسان ضميرى
وقلت لها قول امرئٍ شفَّه الهوى ... اليها ولو طال الزمان فقير
فما أنا إن شطت بك الدار أونأتْ ... بىَ الدار عنكم فاعلمى بصبور

(١) العرجى هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان ينزل بعرج الطائف فنسب اليه (٢) ثبير : من جبال مكة (٣) الوهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه (٤) يرى أستاذنا الدكتور طه حسين أنه لايصح أن تقول : أنت الذى فعلت هذا ، وانما تقول : أنت الذى فعل هذا ، فان القرآن يقول : ياأيها الذين آمنوا ، ولا يقول يا أيها الذين امنتم . ونرى أنه لا مانع من أن تقول أنت الذى فعلت هذا ، بدليل قول العرجى هنا (أأنت الذى خبرت) وقول ابن الدمينة

وأنت التى أخلفتنى ما وعدتنى ... وأشمت بى من كان فيك يلوم

وقول كثير :

وأنت التى حببت شغبا الى بدا ... الى وأوطانى بلاد سواهما

ولنرجع فنذكر اننا بحثنا طويلا عن شاعر سلك مسلك عمر ابن أبى ربيعة فى مخاطبة النساء فلم نجد من يقاربه غير بشار بن برد ، الذى شهد آخر أيام بنى أمية وصدر دولة بنى العباس ، ففى شعر بشار قرب من منهج ابن أبى ربيعة فى محاورة الغوانى والتودد إلى الملاح ، وفيه كذلك تأنق فى وصف الجوانب الحسية من المراة المجدولة الخلق ، المشرقة الجبين . وهو الذى يقول :

وبيضاء يضحك ماء الشبا ب فى وجهها لك إذ تبتسم
رواء العذارى إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم
يزرن فيمسحن أركانها كما يمسح الحجر المستلم

وفى هذا الشعر على يسره وسهولته نفحة من عبادة الجمال ، وهو يذكرنا بقوله من كلمة ثانية

لقى بتسبيحة من حسن ما خلقت وتستفز حشا الرائى بارعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد

وقوله من كلمة أخرى يتحدث فيها عن ليلة وصل :

ومرتجة الأرداف مهضومة الحشا تمور بسحر عينها وتدور
إذا نظرت صبت عليك صبابة وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها لا يخلص الماء بيننا إلى الصبح دونى حاجب وستور

وذكر صاحب زهر الآداب أن بشاراً لما قال :

لايؤيسنَّك من مخبَّأة قولٌ تغلِّظه وإن جرحا
عُسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ماجمحا

بلغ ذلك المهدى فغاظه ، وقال : يحرِّض النساء على الفجور ، ويسهِّل السبيل إليه ! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميرى : يا أمير المؤمنين ، قد فتن النساء بشعره ، وأى امرأة لاتصبو إلى مثل قوله .

عجبت فطمة من نعتى لها
هل يُجيد النعت مكفوف البصر ؟
بنت عشْر وثلاث قسِّمت بين غصن وكثيب وقمر
دُرّةٌ بحريةٌ مكنونةٌ مازها التاجر من بين الدرر
أذرت الدمع وقالت ويلتى من وَلوع الكف ركاب الخطر
أمتى بدّد هـذا لُعبى ووشاحى حلّه حتى انتثر
فدعينى معه يا أمتى علّنا فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت فى خلوة تضربها واعتراها كجنون مُستعر
بأبى والله ما أحسنه دمعُ عين غسل الكحل قطر
أيها النوّام هُبُّوا ويحكم وسلونى اليوم ما طعم السهر

فأمره المهدى أن لا يتغزّل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها هذه التائية :

يامنظراً حسناً رأيتهْ من وجه جارية فديتهْ
لَمَعَت إلىَّ تسومنى ثوب الشباب وقد طويته[1]
والله ربّ محمدٍ ما إن غدرت ولا نويتهْ
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيته
ويشوفنى بيت الحبيـ ـب إذا غدوت وأين بيته
قام الخليفة دونهُ فصبرت عنه وما قليته
ونهانىَ الملك الهما مُ عن النساء فما عصيته
لا بل وفيت ولم أضع عهداً ولا رأياً رأيته

وفى الحق أننا نجد فى القصيدة الأولى شبهاً قوياً بشعر عمر ابن أبى ربيعة ، وإنه ليحاكيه حتى فى التغزل بنفسه والتحدث عن أسْره لقلوب النساء . ولو بقى شعر بشار لاستطعنا التثبُّت مما نراه من التشابه بين شعر هذين الشاعرين ، ولكن شعر بشار ضاع فلم يبق إلا الاعتماد على تلك الشواهد الضئيلة فى تأييد ما ذهبنا إليه ، وإن كنا على يقين من أن لهذا الرأى حظاً من الصحة غير قليل

(١) لمعت الى : أشارت

والخلاصة أننا لانجد شاعراً بعد عمر بن أبي ربيعة وقف حياته وشعره على التشبيب بالنساء ، وإن كنا لا ننكر أن كثيراً من الشعراء نحوا منحاه فى القصص الغرامى ، وإن لم يعرفوا بذلك ، فانّا لانشك فى أن الأبيوردى حاكاه حين قال :

تَنور سناها من بعيد ولا تُرى ... فليس على من آنس النار من باس
ومن مُوقديها غادةٌ دونها الطُّبَى ... تلوح بأيدى غِلمة غير أنكاس (١)
وكل رُدينيٍّ كأن سنانه ... يعط رداء الليل عنهم بنبراس (٢)
مهفهفةٌ غَرْثى الوشاحين دونها ... تحرُّش عُذّال ورقبة حراس
يضيء لها وجهٌ يرقّ أديمهُ ... فما ضرّها لو رقّ لى قلبها القاسى
سموت لها والليل حارت نجومه ... على أُفق عارٍ بظل الدُّجى كاسى
فهبَّت كما ارتاع الغزال وأوجست ... من ابن أبيها خيفةً أى إيجاس

تشير إلى مُهرى رِحذَار صهيلهِ
وتستكتم الارض الخطي خشية الناس

فقلت لها لاتفرقى وتشبثى ... بنهّاس أقران ومنّاع أخياس (٣)

(١) الانكاس جمع نكس بالكسر وهو الضعيف (٢) الردينى : الرمح ، نسبة الى ردينة وهو رجل كان يثقف السلاح ــ يعط رداء الليل : يشقه . وقرىء (فلما رأى قميصه عط من دبر) أى قد ــ والنبراس المصباح (٣) النهس فى الاصل أخذ اللحم بمقدم الاسنان ــ ومن أسماء الاسد النهاس ــ والاخياس جمع خيس بالكسر وهو موضع الاسد

ترد يديه عن وشاحك عفةً وعرض صقيل لا يُزنُّ بأدناس[1]

وطوّقتها يُمنى يدىّ وصارمى بيُسراى فارتاحت قليلا لايناسى

وذقت عفا عنّا الاله وعنكمُ

جَنَى ريقةٍ تاهى أخاكم عن الكاس[2]

فلما استطال الفجر مال بعطفها وداعى كماهز الصّبا قُضُب الآس

ويمكن الحكم بأن أبا نؤاس جارى ابن أبي ربيعة فى النسيب ، لولا أنّه غيّر مجرى الحديث ، فنقله من النساء إلى الغلمان ، وجارى أبا نواس فريق من شعراء الاندلس ، أشهرهم ابن خفاجة الذى يقول فى وصف ليلة قضاها بين ظلال الهوى وجنون الصهباء

وليلَ تعاطينا المدام وبيننا حديثٌ كما هبّ النسيم على الورد

نُعاوده والكأس يعبقُ نفحهُ وأطيب منه ما نعيد وما نبدى

ونَقْلى أقاح الثغر أو سوسن الطلى ونرجسة الاجفان أو وردة الخد[3]

إلى أن سرت فى جسمه الكأس والكرى

ومالا بعطفيه فمال على عضدى

(١) لايزن : لا يتهم (٢) تقبل الله دعاء الشاعر وعفا عنا وعنه انه سميع مجيب

(٣) النقل بالفتح مايتناول على مائدة الشراب

فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى من الحر ما بين الضلوع من البرد

وعاينته قد سُلّ من وشى بُرده

فعاينت منه السيف سُلّ من الغمد

ليان مَجَسٍّ واستقامة قامةٍ وهزة أعطاف ورونق إفرند

أغازل منه الغصن فى مغرس النقا

وألثم وجه الشمس فى مطلع السعد

فان لم يكنها أو تكنه فانه أخوها كما قُدَّ الشراك من الجلد

تسافر كلنا راحتىّ بجسمه فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهد

فتهبط من كشحيه كفّى تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد